القدس: الصراع على العقول

عام ١٩٠٦ تأسست في القدس الشريف "كلية روضة المعارف الوطنية"، على يد نخبة من الأساتذة الفلسطينيين باللغة العربية وأربع لغات أجنبية، استقبل هذا الصرح التعليمي الطلاب من عمر سبع سنوات، ليعمد إلى تخريجهم بشهادات كان لها قيمة علمية عالية في جامعات سوريا ولبنان وتركيا ومصر.

الملاحظ أنه في تلك الفترة في فلسطين، كثرت المؤسسات العمرانية والمعاهد العلمية والآثار التاريخية والمكتبات العمومية والخصوصية، إلى ذلك، تميّز هذا الصرح التعليمي بأنه أرقى بيئة علمية استفادت من كل هذه الحركة الثقافية، وكان الأول من نوعه لناحية فصوله التعليمية ولجانه العلمية بالإضافة إلى ما احتواه من نوادي تصقل المواهب المتنوعة ويبثّ الروح الوطنية لدى الطلاب وقد تميّز أيضًا بنشاط الكشافة.

انتسب إلى هذه "الكلية" طلابٌ من مختلف الدول العربية من سوريا ومصر ولبنان وعمان والأردن بالإضافة إلى طلاب من كافة الأراضي الفلسطينية، وقد تخرجوا منها إما إلى الجامعات الأمريكية في القاهرة وبيروت وجامعات في إستانبول، ومنهم من كان له الحظ بالانتساب إلى الجامعات في لندن. أما من لم يكمل تعليمه الجامعي فقد انتقل إما إلى الوظائف الحكومية أو إلى التدريس في المدارس المختلفة.

جاء تأسيس هذه المدرسة في الفترة التي كان فيها عدد المدارس قليلًا والإقبال على التعلم كثيرًا، قبل أن تقع الحرب العالمية الأولى وقبل وعد بلفور الذي بدأ يؤسس لهجرة اليهود إلى فلسطين عام ١٩١٧، ومباشرة بعد الاحتلال البريطاني وفي العام ١٩١٨، وضع حاييم وايزمن رئيس المنظمة الصهيونية الحجر الأساس لـ "الجامعة العبرية" في القدس الشريف، وذلك في احتفال مهيب.

في سنة ١٩٣٥ عقد في قاعة المحاضرات لكلية روضة المعارف مؤتمر علماء فلسطين الأول، وفي سنة ١٩٣٦ عقد مؤتمر علماء فلسطين الثاني. ومُثلت المسرحيات الوطنية على خشبات مسرحها، ولهذا السبب تعرضت الكلية لغضب سلطات الانتداب البريطاني. كما أقيم فيها حفل كبير لتأبين الملك فيصل الأول بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته.

في سنة ١٩٣٦ وبعد عام من الثورة الفلسطينية، قامت سلطة الانتداب البريطاني بالاستيلاء على أبنية المدرسة، وطردت الطلاب، المعلمين، والهيئة التدريسية منها، فانتقلت المدرسة إلى دار موسى كاظم الحسيني في حي باب الساهرة، تابعت المدرسة مسيرتها حتى النكبة بسنة ١٩٤٨ فتوقفت حينها عن التدريس.

وعلى خطٍّ آخر، استمرت أعمال بناء الجامعة العبرية سبع سنوات، وفي أول نيسان عام ١٩٢٥، أعلن بلفور افتتاح الجامعة رسميًا، في حشد كبير من رجالات العلم والأردب والسياسة والدين اليهودي، الذين

هرعوا من جميع أنحاء العالم لحضور ما أسموه "الحفلة التاريخية"، الفريدة من نوعها في تاريخ الشعب اليهودي.

يعود فكرة إنشاء جامعة عبرية في فلسطين إلى المؤتمر الصهيوني الأول في ١٨٩٧ حيث اقترح الناشط الصهيوني تسفي هرمان شابيرا هذه الفكرة على المندوبين الآخرين وتم نقاشها في إطار المؤتمر. وبعد ١٦ عاما منذ بداية مناقشة الفكرة، اتخذ المؤتمر الصهيوني الحادي عشر عام ١٩١٣ قرار إقامة جامعة عبرية، فاشترى الاتحاد الصهيوني العالمي لهذه الغاية قطعة أرض على جبل المشارف من الزوجين البريطانيين جون وكارولين إميلي غراي هيل (محام ومصورة من إنجلترا زارا فلسطين تكرارا وصورا الحياة فيها).

نمت الجامعة العبرية نموًا سريعًا على أيدي مجلس أمنائها المؤلف من ٣٣ عضوًا يمثلون جميع الطوائف اليهودية، وينتمون إلى أرقى الأوساط العلمية والأدبية في العالم، وكان منهم حاييم وايزمان الذي كان رئيس مجلس الجامعة العبرية الإداري، ورئيس الوكالة اليهودية العالمية ورئيس الكيان الصهيوني لاحقًا، ألبرت أينشتاين العالم الرياضي الكبير وصاحب نظرية "النسبية الشهيرة" ويعتبر أينشتاين من أهم المصادر المالية المتوفرة حتى اليوم للجامعة من خلال بيع تصاريح لاستخدام اسمه وصورته بموجب وصيته بنقل الحقوق بعد وفاته للجامعة. ومن أعضاء مجلس الأمناء أيضًا سيغموند فرويد الفيلسوف الألماني من أصل يهودي، وليس آخرًا إدموند جيمس دي روتشيلد أحد زعماء الفرع الفرنسي لعائلة روتشيلد المالية اليهودية، الذي كان داعمًا قويًا للصهيونية، وقد أضفت تبرعاته السخية دعمًاً كبيرًاً للحركة خلال سنواتها الأولى، مما ساعد في إنشاء الكيان الصهيوني.

اللافت أن "الجامعة العبرية" اهتمت كثيرًا بالعلوم الشرقية ضمن كلية الآداب التي اشتملت على "معهد العلوم الشرقية"، وقد عبرت عنه الجامعة في وثيقتها الصادرة عام ١٩٣٥ بأنه لا يقل أهمية عن "معهد العلوم اليهودية". يشمل هذا المعهد على ٣ مواد أصلية ومادتان ثانويتان، أما المواد الأصلية فهي الثقافة الإسلامية، اللغة والآداب العربية، اللغات السامية. وأما المادتان لثانويتان فهما الآثار في الشرق الأدنى، وعلوم مصر القديمة.

وقد قام بتنظيم وإدارة "معهد العلوم الشرقية" في "الجامعة العبرية" أحد المستشرقين الألمانيين في جامعة فرانكفورت الأستاذ ي. هوروفيتس. وقد حددت إدارة الجامعة أن الغاية الرئيسة من هذا المعهد هي "إعداد رجال يعملون على نبش كنوز الشرق العلمية والأدبية من مدافنها، وتوثيق عرى التفاهم الروحي بين الشرق والغرب، ولا سيما بين مختلف الشعوب التي تتجاور في فلسطين وفي بلاد الشرق الأدنى".

وبالإضافة إلى المحاضرات والدروس التي يلقيها الأساتذة في المعهد، فقد عهد إلى بعض العلماء الملحقين ما أسموه "أعمال جليلة"، "سيكون لها أثر بعيد في الآداب العربية، وفي التاريخ الإسلامي" على ما ورد في الوثيقة الصادرة عن الجامعة، ومن أهم هذه الأعمال في الفترة الأولى لتأسيس المعهد اثنان: تنظيم "معجم مفهرس" للشعر العربي القديم منذ نشأته إلى آخر عهد بني أمية، والثاني إصدار كتاب "أنساب الأشراف" للمؤرخ العربي الشهير أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.

ويلحق بمعهد العلوم الشرقية، قسم الموسيقى الشرقية الذي أنشئ سنة ١٩٣٥، إذ عهدت الجامعة إلى الأستاذ ر. لخمن، القيام بأبحاث منظمة عن الموسيقى الشرقية بصورة عامة والموسيقى الفلسطينية بصورة خاصة.

وقد خصصت الجامعة أيضًا قسمًا خاصًا بالآثار "علم الآثار في الشرق الأدنى"، وأولت الآثار الفلسطينية والإثار الإسلامية اهتمامًا خاصًا.

اللافت جدًا أيضًا أن الجامعة المذكورة كانت تشجّع الطلاب على التخصص في "معهد العلوم الشرقية"، وكانت تمنح تحديدًا، ودونًا عن غيرهم، الطلاب المتفوقين في العلوم الإسلامية واللغة العربية وآدابها، وللمتفوقين في تاريخ يهود الشرق، جوائز مادية قيّمة.

وفي نفس السياق، برزت الكتب العربية وخاصة تلك الكتب التي تبحث عن العرب والإسلام والشرق بلغات متعددة، في مكتبة الجامعة، كما ورد في الوثيقة.

الواقع أنه لا يمكن عزل هذه الاهتمامات باللغة العربية والثقافة الإسلامية وحتى التاريخ والتراث والموسيقى وعلم الآثار عما أصبح واضحًا اليوم وفي وضح النهار من سرقة للتراث الفلسطيني، ويبدو أن الاجتهاد في ذلك بدأ مع بدء التأسيس للكيان الصهيوني، إذ كان لا بدّ من دراسات معمقة للمنطقة التي أرادوا غرس أنفسهم فيها، للحصول على قدرة أكبر على التأقلم والانبثاث في المشرق العربي، بل والسعي إلى تهويد ما يمكن تهويده من تراث ثقافي أو اجتماعي.

إلى ذلك فقد عمد هؤلاء وبمساعدة البريطانيين إلى اجتثاث كل ما يشكّل لليهود من خطر على هذه المشاريع، من خلال وأد الصروح الثقافية الأصيلة الناهضة والفاعلة.

بكل بساطة وعن سبق تخطيط، هكذا استولى اليهود على فلسطين.

أبرز مؤسسي "الجامعة العبرية"

يعد حاييم وايزمان أشهر الشخصيات الصهيونية بعد هرتزل، وقد لعب الدور الأهم في استصدار وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧م، وكان رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية منذ عام ١٩٢٠م حتى عام ١٩٤٦م، ثم انتُخب كأول رئيس لدولة إسرائيل عام ١٩٤٩م.

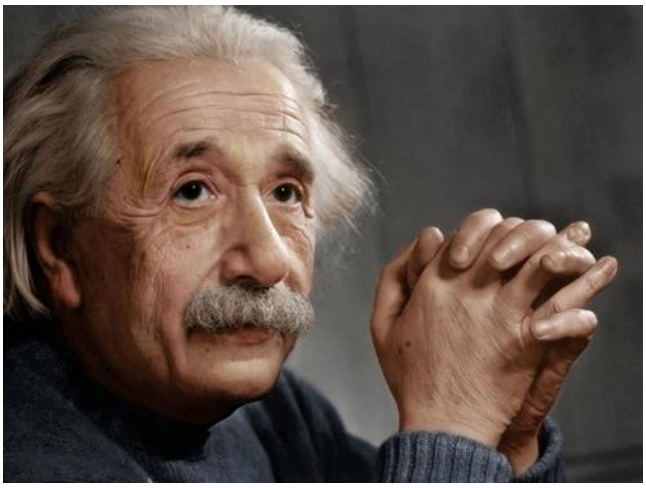

ألبرت آينشتاين عالم فيزياء ألماني المولد، (حيث تخلى عن الجنسية الألمانية لاحقا) سويسري وأمريكي الجنسية، من أبوين يهوديين، وهو يشتهر بأب النسبية كونه واضع النسبية الخاصة والنسبية العامة الشهيرتين اللتين كانتا اللبنة الأولى للفيزياء الحديثة، في فترة تأسيس الجامعة كان يعيش في ألمانيا وليس في فلسطين. ثم انتقل للعيش في سويسرا وبعدها إلى الولايات المتحدة. ومن أقواله عام ١٩٤٦ أن "فكرة دولة إسرائيل لا تتوافق مع رغبات قلبي. إنني لا أفهم لماذا نحن بحاجة إلى دولة كهذه".

سيغموند فرويد طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختصّ بدراسة الطب العصبي وهو مفكر. لم ينتصر لليهود ولا للفلسطينيّين. ولم يخفِ تعلّقه بجذوره اليهوديّة، على الرغم من تأكيده أنّه بعيد كلّ البعد عن الدين اليهوديّ وعن الدين بعامّة. وكان قد أعلن عام ١٩٢٥ أنّ ما يربطه باليهوديّة ليس الإيمان ولا الزهو القوميّ الباطل، بل أمور عديدة لم يخض فيها البتّة. وفي أحد رسائله قال: «لا أعتقد أنّ فلسطين ستصبح ذات يوم دولة يهوديّة، وأنّ العالمين المسيحيّ والإسلاميّ سيكونان مستعدّين لأن يريا المدينة المقدّسة تحت السيطرة اليهوديّة».

هو البارون أدموند جيمس روتشيلد، اقتصادي ورجل أعمال. وهو أحد أفراد أسرة روتشيلد، أشهر العائلات اليهودية المصرفية في العالم، وهو مؤسس فرع العائلة في فرنسا. ولد في فرنسا واهتم بالمسألة اليهودية منذ صغره. بدأ اهتمامه بقضية يهود اليديشية وبعملية توطين اليهود في فلسطين في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وصل إنفاقه على المستوطنين خلال الفترة (١٨٨٣ - ١٨٩٩) حوالي ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، وقد اشترى أرضاً في فلسطين أواخر عام ١٨٨٣م لإقامة مستوطنة زراعية نموذجية لحسابه الخاص أطلق عليها اسم والدته، كما ساهم في إقامة صناعات كثيرة لليهود في فلسطين، وفي عام ١٩٢٩ عين رئيساً فخرياً للوكالة اليهودية.